طفولة لم تكتمل بعد!
زهراء الخطيب

طفولة لـم تكتمل بعد!

زهراء الخطـيب

إهـداء

لمن قال الله فيهم {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} (الكهف –٤٦)

لسر البسمة وبلسم الزمان.

لذلك الطفل الذي إن قلت له " ابتسم " بحلق في وجهك ليفهم معناها،

لذلك الذي لم يجد حضن يحتويه أو سقفاً يؤويه،

لمن جاع فأبت كل الطرق أن توصل له رغيف خبزٌ

وشربت ماء، لفلذات أكبادنا وبضعٌ من قلوبنا.

أنتم الشي الجميل الذي قد يحظ به المرء،

أنتم صناع المجد، أنتم الجيل الصاعد وامل هذه الأمة.

لأطفال اليمن خاصة وأطفال العالم اجمع لأنكم كل هذا وأكثر

أهدي هذا الكتاب المتواضع لكم.

مواجع طفل

غادر أبي منذ أن كنت رضيعا أبلغ ثلاثة أشهر إلى قمة الجبل ليجلب لنا البطاط ولم يعد حتى اليوم مر على غيابه تسعة أعوام إنها مدة طويلة.

أشعر بالخوف عليه رغم أن جدتي قالت إنه بمكان آمن وسيعود عندما أكبر. لماذا؟

أود أن أرى وجهه، أن العب معه. أتممت جزء " عم " أريد أن اسرده عليه غيباً ليفخر بي ويعطيني تفاحة كالتي أعطاها والد صديقي لأبنه. اشتقت إليه. أنا حتى لا أعرف ملامحه كيف يبدو يا تُرى؟ قالت جدتي انه كان وسيماً وأنني أشبهه وأنها لا تملك صورة له فقد اختفى البوم الصور له.

أختي ونصف بيتنا ضحية لغارة جوية غاشمة.

يا لأختي من مسكينة

لقد تناثرت أشلاءها بفعل الصاروخ وبخلت عليها الأرض حتى بقبر يضم جسدها.

أمي تعيش في بلدة بعيده كما تقول جدتي وأراها مرة كل سنة

لا أعرف لما تعيش أمي في بلدة أخرى. كل أمهات أصدقائي يمكثن مع أبناءهن.

أتم كتابة مذكراته وعاد أدراجه راكضا إلى البيت.

جدتي لقد عدت أتممت جزء "عم " ليهرع ويحتضنها فتدفعه عنه بقوة حتى سقط على الأرض.

تشحرجت عيناه بالدموع لا يفهم لما تعامله جدته هكذا. نهض حانقا يهم بالخروج فتسمر مكانة.

جدته تسعل بقوة وسائل احمر دبق يتدفق من بين شفتيها.

جدتي ما هذا أهي دماء ما بك! أسفه يا صغيري لا تقلق لقد أكثرت من اكل التوت فآلمتني معدتي تعال لأحضر لك الغداء. لدينا خبز ساخن اليوم. فرح طفلنا فرحا شديد وبدأ بتناول الخبز بشراهة.

التفت لجدته: أين حصتك يا جدتي.

فأجابته: كبار السن لا يجوعون كالأطفال يأكلون مره فقط ويشعرون بالشبع طوال اليوم.

ولكنك لم تأكلي سوى قطعة صغيرة من الخبز صباحا.

قلت لك أننا لا نشبه الأطفال يا صغيري

طوى النهار صفحته وزارهم الظلام حاملا معه ليلة ماطرة من ليالي الشتاء القارس.

وضع صغيرنا وجدته الطناجر على الأرض لتلتقط قطرات المطر التي تتسرب من شقوق السطح.

وغط ملاكنا الصغير في سبات عميق.

ولكن ما لبث أن قطع نومته تلك ابتلال ملائته المهترئة نتيجة الماء الذي تسلل

من ثقوب جديدة فأرتعد جسده من البرد.

هرعت جدته لتأخذه إلى زاوية أخرى تضمه وتغطية بسترتها الصوفية.

كان جسدها دافئا، بل حارقا كما شعر صغيرنا فابتعد قليلا عنها.

ابتسمت له وقالت: لقد أصبحت رجلا يا ولدي. كبرت كثيرا وتستطيع تحمل أعبائك.

حان الوقت لتتعلم أصول الشغل. ابتسم ملاكنا الوديع وتضاربت مشاعره.

شعوره بالفخر وشوقة لرؤية والده. ها قد آن الأوان نسج أحلاما وردية كثيرة برفقة والده

كيف سيعانقه في المرة الأولى وأين سينام سيرافقه للمدرسة سيتفاخر به أمام الأطفال،

سيصرخ بوجه صديقة اللئيم الذي أخبره انه يتيم قائلا هذا أبي.

قطع حبل أفكاره تلك قول جدته يجب أن تترك المدرسة أنت ذكي جدا ولم يعد هناك ما تتعلمه.

سيأتي صديق والدك غدا ليعلمك أساسيات العمل. كانت وقع كلماتها عليه كالصاعقة.

لماذا أنا أحب المدرسة لا لست ذكيا كفاية. هناك المزيد لأتعلمه كانت هذه خواطر طفلنا،

ولكنه أومأ برأسه باكيا بالموافقة. فتقبله جدته ليذهب بعدها في نوم عميق

داعبت خيوط الشمس جفونه حتى أيقظته ليرى جدته نائمة على غير عادتها.

حاول إيقاظها، ولكنه لم يفلح. استمر بهزها خائفا حتى رأى بقعة كبيرة من التوت.

سمع طرقات الباب وصوت رجولي ينادي باسم جدته. ركض ليفتح الباب عل الغريب يساعده.

أسرع صديق والده ليراها ملقاة على الأرض، حس نبضها وبعد لحظات، وضع الملائمة على وجهها وتمتم بكلمات لم يفهمها صغيرنا. ((إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)).

أعود بكم الى مذكراته.

كبرت يا جدتي ولم يعد أبي، عرفت أن صديقي اللئيم الذي كان ينعتني "باليتيم" لم يكن لئيما،

بل كان صريحا وشجاعا أكثر منك يا جدتي. عرفت لماذا لم تمكث أمي معنا كباقي الأمهات.

فقد كانت أرملة بائسة، تزوجت بعد رحيل أبي لتداري سوأت الفقر المذقع الذي عشتي فيه معي

لم تتحمل يا جدتي كما فعلتي. سامحيني، ولكني أكره أنانيتها أكره تركها لي أكرهها وأكره كوني ولدها.

عرفت يا جدتي أن كبار السن كما الأطفال وأكثر يحتاجون لثلاث وجبات متكاملة في اليوم على الأقل

وأن ما كان يخرج من فمك لم يكن توتا كان "السل" ذلك المجرم الذي نهش في صحتك وقتلك.

كيف لم أعرف فمن أين لنا بقيمة التوت وكيف لك أن تأكليه بدوني وأنت التي كنت تتضورين جوعا

وتدعين الشبع، ترفضين وجبتك اليوم لتجعليها حصتي غدا.

كبرت واكتشفت أن أختي أكثر حظ مني وأنها استراحت من كل عناء.

علمت أنني لم أكن رجلا كفاية كما أخبرتني لأتحمل أعباء هذه العالم فقد كنت لا أستطيع الوقوف وانا حاملا لصخرة متوسطة الحجم بالنسبة للرجال الذين كنت أعمل معهم كما وأنني ضئيل الجسد وطولي لا يصل حتى لصدورهم.

لم اترك المدرسة لأني كنت ذكيا جدا فأنا لا اعلم شيئا عن الكيمياء أو الأحياء.

بل كنت طفلا يتيما، فقيرا وحيدا وبائسا جدته على مشارف الموت تعده ليعتني بنفسه.

كبرت يا قرة عيني وعرفت كل كذباتك البيضاء،

ولكن لم أع ما كان جُرم أختي لتتطاير إلى أشلاء

وما كان ذنبنا ليهدم بيتنا بغارة جوية؟

الطفل الباكي

الحياة ليست عادلة معك يا صغيري.

أتعبتك وأدمعت عينيك الما اختلطت حبات اللؤلؤ من أدمعك

بسواد بؤبؤك الملائكي فأصبحت مليئة بالتناقضات.

ذلك النوع من التناقضات الآسرة كسواد الليل وبريق القمر.

والله لا أدري يا خليل الفؤاد أأتغزل بالعينين وسحرهن ام العن الحزن الذي استباح طهر قلبك.

أخبرني يا ابن قلبي من عاث في عالمك الصغير وروعك أهو الجوع ام المرض.!

أخبرني يا حبيبي أأصوات البارود من إخافتك ام فقد أمك حطمك؟

أتراك تعي هذا الظلم ام تُراك تفهم هذه المجازر؟

أصبح الرسامون يتباهون بتجسيد حزنك في صورة تحت مسمى الإنسانية وإيصال الأوجاع

وما هم سوى جلادون، ولكن سيطانهم تختلف لينالوا المال والشهرة.

يتفننون برسمك وإتقان ملامحك الباكية وشحوب وجهك الصغير.

كنت أؤمن أن في الحرب طرف خاسر وطرف منتصر أما والله بعد أن رأيت وجهك الغض تعتليه الحسرة أيقنت أن فكرة الطرف المنتصر والشعارات النبيلة ماهي سوى خرافات يضحك بها الساسة علينا ليسوقونا كالأنعام تماما كمعركة طروادة " اغتصاب أرض وحكم مبطنة بشعارات مزيفة شريفة " فأي انتصار فيه دموع الأطفال لا تنضب وصراخ الأيامى لا تكف ما هي إلا محرقة صامته.

يا صغيري ليس هناك ما هو اشد إيلاما ووطأة على قلبي في هذه الحياة سوى رؤيتك تتألم وتبكي.

أتمنى لو كان هناك قانون يقول " إن سقطت دمعه من عين طفل عوقب الجميع بالموت صفعاً بالخفوق".

ولكنها الحياة يا صغيري ولا وجود للمدينة الفاضلة إلا في رأس أفلاطون.

أدركني الكبر

يقول أحدهم لقد أتعبتني الحياة وانا انظر الئ الأطفال حولي يمرحون ويلعبون أكبر خساراتهم ضياع لعبتهم المفضلة، وأبشع معاركهم تلك التي يخوضونها بالجري وراء بعضهم البعض.

قد تجدونني ساذجاٍ إن قلت لكم أنني ولو أُتيحت لي معجزة أن أعود طفلا فأنني لن اقبل

فبينما أنا أُراقبهم يلعبون ويضحكون ويرتدون الثياب الجميلة الفارهة التي تدل أنهم ينعمون بحياة باذخة، خطر في بالي شريط ذكرياتي الدامي ‘‘كهلا في السابعة من عمره " كانت لعبته الوحيدة الاستيقاظ عند الفجر ليتقاتل مع الظروف ويوفر كسرة خبز تخرس الأصوات الشمطاء الصادرة من بطون إخوته الصغار الذين أعياهم الجوع. لاحظت انه كلما سقط طفل بفعل سرعته بالجري وهو حامل لألعابه، تسرع امه لتوبخه بالقبلات الحارة والأحضان المليئة بالخوف واللهفة قائلة "بسم الله عليك" ويأخذه أبوه ليرفعه الى السماء، يقذفه ويعيده ولا يتوقف الى أن يسمع أصوات كركرة طفله تصدح.

لا أخفيكم سراً أنني كنت اغبطهم حد البكاء فهذه هيج روحي اشتياقا لوالدي الذي أختطفه الموت منا باكرا على حين غرة برصاصة قناص هوايته الوحيدة حصد الأرواح وتركني أكون والدا

قبل أن أصل سن البلوغ حتى. لم تكن متساهلة معي الحياة، بل كانت تتقصدني.

لم ترحم طفولتي ولين عظامي، بل كانت كل يوم ترسل لي أشرس جنودها الأشاوس

فقر، جوع، مرض وفقد مقنعين بأقذر الأوجه مدججين بأحقر الأسلحة.

تواطأت معي اشد وطاءة سلبت مني عيشتي المستحقة كطفل يعيش وسط عائلة طبيعية.

أكاد اقسم أنني أتخيل ظروفي ساحرة شمطاء تستلذ بعذابي أتلقى الصفعات من كل وجهة الوذ بها.

أتذكر تلك الليلة حينما وجدت طفلا صغيرا كان يقطن بالقرب من حينا منزو على نفسه

أرهقه البكاء حينها اقتربت أسأله عن سبب بكاءة فأجابني أنه لم ينه فروضة المنزلية

وأنه يكره المدرسة وإذا بأمة من بعيد تأتي وتصالحه وتغدق عليه بالحب والحنان قائلة " كدت أموت من الخوف عليك لا تخرج ثانية في الظلام"، أتذكر جيدا حرارة دموعي التي سقطت على وجنتاي تلك اليوم ومازالت تحرقني الى يومنا هذا وانا أتذكر أمي التي ما لبثت سنة بعد رحيل والدي إلا وأعراها المرض طريحة الفراش فاقدة للبصر لا تعرف الليل من النهار.

أود أن أخبركم أنني تمنيت لو أن أمي قادرة على معرفة الوقت لتوبخني فقط

لأنني أعود كل يوم متأخرا لأنهاء أعمال إضافية لأستطيع ادخار مبلغ يكفي لأشتري دواءها وكتب لأتعلم مع إخوتي. رحلت أمي رحمها الله وأنا رجلا في العاشرة

وتركتني كما أبي أقاسي علقم فقدها وأعاني غياهب الحزن هل تصدقون لو قلت لكم اني ومع هشاشة قوتي لم ابكي أبدا بل نمت يومها محتضن إخوتي ولم أستيقظ إلا في وقت متأخر بفعل يد صغيرة تطبطب على خدي تطالب بالطعام، نهضت لأرى فراش أمي باردا خاليا فأيقنت أنها فارقتنا حقا

وفي تلك اليوم خسرت أخر براهين طفولتي لترفع الحياة راية انتصارها لانتزاع طفولتي.

ها أنا أعود بكم الى اللحظة شيخ في العشرين من عمرة روحة مسنة مليئة بالتجاعيد يراقب الأطفال بعين تملؤها الحسرة يتساءل أين وئدت طفولته.

حياة متعبة

بينما كنت عائدا من جامعتي البارحة لا اعلم كم الوقت تمام

لأنني لم أكن احمل ساعتي، ولكن الشمس كانت في كبد السماء

والحرارة تزداد لتصبح الأرض كتنور ضخم قررت أن انزوي تحت ضل شجرة

لارتاح قليلا وأنعم بقليل من الظل

وبينما أنا جالس لفت انتباهي طفل صغير

يتأملني كمتشرد جائع ينظر لقطعة خبز من وراء زجاج

كانت ملامحه بريئة، ولكن متعبة

عيناه مليئتين بالحيرة أثارني الفضول كثيرا

فسألته: ما بالك يا صغيري تجلس وحيد الحال شريد البال

كأنك تتوسل اللقمة من شرفة رصيف شحيح؟

فأجابني بكل هدوء وتلقائية: أود أن أكبر.

لم يسمح لي أن أرد حتى

فزاد قائلا: روحي رثة هرمه تبلغ السبعين من عمرها حشروها عنوة

داخل جسد ضئيل ليزيدوا عليها معاناتها وتجاعيدها.

دعني أزعجك قليلا يا قوي الجسد

وحسن المظهر.

سوف اسرد عليك أمنياتي

أتمنى لو أصبح فارع الطول عريض المنكبين والكتفيين

وأن يتضاعف جسدي مثلك لعل ألمي ينتشر في أجزائه ليتضاءل

أدهشتني كلماته حد البلاهة كيف لطفلا لم يتجاوز ربيع العاشرة

أن يصوغ كمثل هذه العبارات،

علّني اعرف أكثر عن هذا الشيخ الصغير

قادتني غريزة الفضول واللهفة لأستطرد قائلا: ما الذي تقوله يا صغيري

لا تغرك متانة الجسد ولا خشونة الأطراف، ولا تخدعك صلابة الملامح الواهية.

إننا هشون يا ولدي هشون للغاية.

أتعلم يا رقيق الملامح

أنكم محظوظون للغاية فنحن معاشر الراشدين نبيع العمر كله لنحظى بنومة

كالتي تنعمون بها كل يوم صافون الذهن مرتاحين البال، أو بفرحة انتصار

كتلك التي تشعرون بها حين يطلب المعلم من زملائكم في الصف التصفيق لكم.

أن نستطيع الهرولة والارتماء بأحضان أمهاتنا بدون حرج كلما أعرانا الوجع

ليقابلونا بقطع من الشوكولاتة ووابل من القبلات الحانية.

لا تكبر يا صغيري عالمنا موحش وفيه العجب العجاب.

عالم كالموت يجتث زهور شبابنا عنوة ويلقي بها في مزبلة العمر.

استمعن جيدا الى حين لم يعد لدي ما أقوله

عم الهدوء بيننا لبرهةٌ من الزمن ليكسر حاجز الصمت قائلا: أتعلم يا سيدي

أنا لست طفلا أنا قلب ينبض بالأسى،

جسد نهشته أظافر الحاجة أنا معدةٌ خاوية تتحرق شوقا لاحتضان رغيف غض أنا صديق الحزن،

أتعلم يا هذا أن الفقر هو رفيقي المخلص الذي كلما حاولت التملص عليه ومجافاته بادرني بالوصل.

يا له من وفي ويا لي من بائس يتعشم بالخلاص من خليلة.

أتدري يا سيدي كنت لأوافقك الرأي لو كنت طفلا عاديا ينعم بما ينعم به من في عمره.

لم أحظى بما يحظ به الصغار لم أعش يوما كما يحلو لي العيش.

لم يمسك والدي يدي الئ المدرسة كما يفعل الأخرون مع أبناءهم.

حرمت التعليم فبينما كانوا يحملون كتبهم ذاهبون إلى المدرسة،

كنت احمل كيس يعادل جسدي مرتين لاختطف كسرة خبز من مخالب هذا الزمن الجشع.

كنت أتحرق شوقا وتُعتصر روحي الما وانا انظر لتلك الحقائب المبهرجة على ظهورهم

وأتمنى لو أن لي حظ واحمل مثلها.

رأيت ابتساماتهم الجميلة تنمو وتزهر بسلاسة على وجوههم كلما يأتي باص المدرسة ليقلهم،

فأقارنها مع شبح العبوس الذي يعتلي وجهي وانا حاملٌ ثقل كيس الدقيق على ظهري

فتغرق عيوني بالدموع.

ارى الأطفال مدججين بما لذ وطاب من الطعام فذاك يحمل بعض الكعك

وذاك يحمل فاكهة وقطعٌ من الحلوى وانا الذي قد نمت ماسكا أحشاء بطني الماً ينخرها مسخ الجوع.

أترقب مغيب الشمس فأرمي كيس الدقيق واركض بثياب مهترئة، متشرد أشعث، اغبر يمكنك رؤية أصابعه

المتسخة من ثقوب حذاءه، لأسابق الظلام وأعود لمنزلي حاملا جبال من الحسرات على طفولتي التي بترت.

أنهى حديثة ورحل.

كنت غارقا بما سمعت تملكتني مشاعر الصدمة لم أستطع أن أتفوه بكلمة،

بل أكاد أقسم لكم أنني لم ألاحظ لحظة مغادرته

رأيته ويا ليتني ما وجدته، قذف عود ثقاب كلماته ليحرق غابات قلبي،

أنفاسي تعالت وذرفت العين جمراً أحرقت وجنتاي لله درك يا صغيري كم حزن عاصرت وكم شقاء تعاني.

ماذا تعني طفولة؟

صرخت بكل ما تمتلك من قوة لا تقتلوا طفولتي

كانت تلعب وتمرح مع أطفال حارتها، تستطيع سماع ضحكاتها

تصدح من علئ بعد مسافة بعيدة

كانت فتاتنا شغوفة وطموحة، محبة للحياة لم يستطع الفقر حتى النيل من ابتسامتها

تلهو وتلعب تقفز وتجري إلى أن يعلن الظلام وصوله ويحل الليل ويعود الأطفال

الى منازلهم المتواضعة.

في صباح اليوم التالي يتوجه الأطفال الئ المدارس وتخرج صغيرتنا حامله حقيبة ظهرها

لتذهب لتتلقن العلم فرغم الظروف المزرية من الحاجة التي تمر علئ عائلتها.

إلا أنها كانت مكافحة، صبورة ومحبة للنجاح تقنع بالقليل.

كانت الأولى في صفها، مجتهدة جدا نهمة في طلب العلم والمذاكرة.

شعارها الوحيد " قف على ناصية الحلم وقاتل ".

أصبحت تعرف بالفتاة الذكية بين زملاء صفها، بل في كل أرجاء المدرسة.

استمرت حياة بطلتنا على هذه النحو الى أن أتى عليها ذلك اليوم المشؤوم الذي

قلب حياتها رأسا على عقب

فينما كانت صغيرتنا عائدة من المدرسة والفرح اخذ من ملامحها ما اخذ

فقد كرمت لاجتهادها وتفوقها المتواصل.

فرحت كثيرا لأنها أخيرا ستجلب القليل لهذين الوالدين الذين أرهقتهم متاعب الحياة

ولا يملكون نصيب من الحظ سوى أن لهم فتاة جميلة يمتدح الجميع ذكاءها.

كانت تفكر بتعابير وجه والدها الفخور وهو يمتدحها ويمسح على شعرها برضى

وبأمها المحبة الذي لم تبرح يوما من قول ذلك الدعاء المحبب لصغيرتنا "وفقك الله يا طفلتي وزادك من فضله".

لتدخل منزلها الصغير والمتواضع تحمل جائزتها، ولكن استوقفتها أصوات أناس أخرون في منزلهم.

دار صراع كبير بين فرح وشك.

شبح من الخوف ظهر على ملامحها، دب الرعب في أرجاء قلبها دارت العديد من الأسئلة في رأسها.

ماذا يفعل هؤلاء الناس في منزلنا؟ هل حصل لوالدي مكروه؟ أنها أول مرة يدخل غرباء إلى منزلنا

لا أتذكر انه قدر زارنا أحد من قبل، حتى الجيران اشك بأنهم يعرفون أننا نقطن معا بنفس الحي.

في قريتنا لا يعرف سوى الأطفال بعضهم البعض فلولا اللعب لما رأيت أحد منا يعرف الأخر.

كل هذه الأفكار المزعجة حاصرت عقلها

ولم تجد لها مخرج الى أن سمعت صوت والديها في الداخل ارتاحت قليلا.

ولكن ما لبثت هذه الراحة أن اختفت حين سمعت والدها يناديها " تعالي يا ابنتي وألقي السلام".

ابنتي!

نعم استوقفتها هذه الكلمة!

هذه أول مرة يقولها لي لم اعهده ينعتني بهذا اللقب قط لطالما كان يناديني بصغيرته.

شككت أن هناك أمراً مريب، زاد توتري وتشبثت قدماي بالأرض لم تحملني قدماي على التقدم.

ارتفع صوت أبي مناديا عليا بالدخول عليهم.

لطالما تمنيت أن يأتينا ضيوف أن نجتمع أن يكون لي عائلة كبيرة

أن يتهافت علينا الجيران أن نصبح مجتمع واحد، ولكن تلك اليوم تمنيت لو انهم لم يخط عتبة بابنا،

تمنيت لو أنني عدت من مدرستي ولم أجد أحدا.

دخلت عليهم وقعدت بجانب والداي.

رأيت رجلا اسمر البشرة، طويل القامة وعريض الكتفين ينظر الي بنظرات أفزعتني.

استمر بالنظر الي واستطرد قائلا " أهذه هي؟" أجابه أبي قائلا " نعم هي،

إنها ابنتي الوحيدة "ارتعد جسدي من الخوف. لماذا أنا محور الحديث؟ لماذا هذه النظرات الحارقة؟

ومن هذه الغريب المتعجرف؟ تمنيت أن يقول والدي شيء يريح عقلي من التفكير والخوف.

التفت الي والدي قائلا " انه زوجك وقد تقدم لخطبتك وتمت الموافقة "شعرت بدوار بشع

تجمدت أطرافي واقشعر بدني.

لقد علمت أن في الأمر شيئا خاطئا منذ البداية، لقد كان شكي في محله.

نعم يا أبي العزيز لقد تملكني الخوف منذ سماع كلمة "ابنتي"

نعم تيقنت أن هذه الكلمة لا تبشر بالخير.

لماذا خنت ثقتي بك إننا رغم سوء حالنا لن تخذل ابنتك يوما بقرار كهذا.

لماذا أجهضت أحلامي قبل أن تولد، لقد حطمت كل ما بنيته من آمال دمرت مستقبلي

وكل شي جميل كنت اطمح له، لماذا أصبحت سبب حزني وعاملا أساسيا في شقائي العمر كله.

سأصرخ باكية كالأطفال، لحظة واحدة أنا في الأصل طفلة.

وبكائي لا شك أن يكون كالأطفال انظر حتى شكلي يشبههم.

انطفأ بريق أيامي منذ تلك اللحظة ليقول لي والدي انه زوجك

وقد تمت الموافقة وقال انه سيسعدك.

تعلمين أننا لا نملك المال الكافي لقوتنا وكذلك لرسوم دراستك.

لا أريد شي يا والدي منكم يكفيني السعادة التي أجدها بأحضانكم

يكفيني تلك الابتسامة التي أراها كل صباح تعتلي وجوهكم يكفيني دفء العائلة معكم.

أعدك سأكل قليلا، قطعة من الخبز بدل ثلاث، والله لن اطلب غيرها

مهلا أنا لن أطالب برسوم للمدرسة

أعدك سأتوقف عن الذهاب الى هناك.

سأتخلى عن أحلامي فقط دعني بين كنفك.

أنا لست مستعدة يا والدي لأحمل عبء عائلة وانا المحتاجة لمن يعيلني.

لا تصدق يا أبي أن هناك حضن أدفئ من حضنك وان هناك امأن في منزل لا تكون أنت وأمي فيه.

لا تصدقي يا والدتي أن هناك رجل أو عائلة ستتحملني كما تتحمليني أنت لطالما كنت ابنتك المدللة.

ماذا حدث؟ ازداد بكائي لمن الجأ؟ لم اعد اشعر بالأمان حتى مع عائلتي

لم أتخيل أني قد اغدر من طرفهم.

بعد مرور عدت أيام أعلن حفل عزائي لذلك المسخ الذي لن أستطيع مسامحته لبقية حياتي.

كيف لي أن أنسي وأسامحه فهو الذي استغل حاجة عائلتي ووقف عائق أمام ما كنت اطمح إليه.

لو كانت أصوات القلوب تسمع لسمعتم نداء قلبي يترجاكم ألا تقتلوا طفولتي

ولو كانت الأرواح تُرى لرأيتم روحي تقطر دما وتتقلص وجعا من فعلتكم الشنعاء تلك.

وكل دمعه من عينك تشهد الله أن يخسف بهذا الكون وان يزيل متعة الحياة

أقصر خطبة جمعة في التاريخ للشيخ السوداني عبد الباقي المكاشفي ف خطب قائلا " لقمه في بطن جائع خير من بناء ألف جامع" وأقم الصلاة .

أجمل ما في الطفولة انه لاهم ولا حزن، لا إرهاق بالتفكير ولا بحث عن التدبير نوم بدون ارق، لا خوف ولا قلق . لاشعور بالتعب إلا من كثرة اللعب أين كل هذا من أطفالنا ؟

مقولة طفل

* أعلم أن التعليم أفضل من العمل لكنني اضطررت أن أعمل لكي أعيش .

* أتمنى أن أقضي يومي كبقية الأطفال وأتمكن من اللعب مع صديقاتي .

* أريد أن التحق بالتعليم وأتعلم كما يتعلم الأطفال الأخرون .

* الأشياء التي يراها الأطفال الأخرون لا قيمة لها أنا لا أستطيع الحصول عليها .

بالرغم من الحرمان

بينما أنا عائد من عملي البارحة

صادفت ثلاثة ملائكة صغار يحملون المعاول

يعملون في الحقل بجد رغم هشاشتهم ووردة رقيقة تتوسطهم لم يزدها التراب

الذي يغطي وجهها وثيابها إلا جاذبية.

لبرهه ظننتهم أبناء صاحب المزرعة، انزعجت كثيرا كيف لوالدهم

أن يتركهم يعملون هذا العمل الشاق ولوقت متأخر.

توقفت قليلا وألقيت السلام عليهم فردوا بأحسن منه

استمريت قائلا: أين والداكم يا أعزاءي؟

فأجابني الطفل الأكبر متوجسا وهو يحاول ضم إخوته إليه لماذا تسأل يا سيدي؟

شعرت انه خائف فحاولت أن أطمئنه، لا تقلق يا بني أود محادثته فقط

رد قائلا: توفى والداي رحمهما الله منذ أشهر وانا أعيش هنا مع إخوتي بمفردنا

أحسست بغصة داخلي كيف لأطفال لم يتجاوز أكبرهم سن الحادي عشرة

أن يعيشوا بمفردهم فأجبته: هل هذه الحقل لكم. ابتسم ابتسامة باهته

وقال: أتمنى يا سيدي، ولكن نحن نعمل هنا من بزوغ الفجر

وحتى الليل ليكافئنا صاحب المزرعة بقطعة خبز كل مساء وسترة بنهاية كل شهر.

نزلت كلماته عليا كالصاعقة، حتما هذا العالم يعاني انفصاما رهيبا فهو يدعي التحضر

والإنسانية بينما فيه أطفال كادحون بخل عليهم بلقمة وشربة ماء

أين التحضر الذي يدعيه وهو يشرد ألاف الأطفال أو يقتلهم جوعا

وأين الإنسانية التي يتباهى بها وملايين الأطفال تستغل حاجاتهم ليصبحوا آلات عاملة بزهد إيجار؟

أجبت بهمس: يا له من وحش.

فردت عليا الطفلة قائلة: هذه غيبة يا سيدي حرام عليك أنه طيب جدا

فهو إضافة لقطة الخبز يجعلنا نبيت في زاوية من الإسطبل لنحتمي من المطر في الليل.

اتسعت عيناي لما سمعته يا لبراءة الأطفال ما أحلاها

ولكن ما شد انتباهي أكثر قولها " هذه غيبة يا سيدي حرام عليك"

دار في لبي سؤال احترت في أمره

لما هؤلاء الأطفال مخلقين رغم انهم ليسوا بكنف عائلة؟

من رباهم من لقنهم وعلمهم الحلال من الحرام؟

هل يا ترى ما مروا به من مآسي كان كفيلا بتأديبهم؟

سألتها بمرح زائف: هل يكفيك نصيبك من الخبز يا صغيرتي وكيف تستطيعين أن تأكلي الخبز هكذا.

فبادلتني نفس الابتسامة وقالت: إنها صغيرة ولا تكفي وتستمر معدتي

بإصدار أصوات مزعجة مطالبة بالطعام

ولكن أخي الأكبر يقاسمني حصته، دائما يقول أن الرجال أقوياء ولا يحتاجون للطعام كالفتيات

وأما عن سؤالك كيف أكل الخبز وحيدا هكذا فأنا وإخوتي نلعب لعبة رائعة ما إن نبدأ بتناول الغداء

نتخيل إننا نتناول معه الشوربة في القضمة الأولى وفي القضمة الثانية نتخيل إننا نتناول فطيرة التوت

وهكذا أنها مسلية للغاية.

لم أدر علام استغرب حينها من هذا البطل الواقف أمامي الذي لم يتجاوز طوله المتر وعشرون.

يا لقوته رغم هشاشته

كيف لطفل لم يتجاوز الحادية عشرة أن يتحمل كل هذا !

كيف له أن يتحمل الجوع ويؤثر أخته على نفسه؟

أم يكون عجبي من أحلام اليقظة التي يعيشونها يحلمون بتناول الشوربة؟

أهناك أطفال هكذا؟

إن الخيال بالنسبة لهؤلاء الأطفال مخدر يتعاطوه كلما أوجعتهم الحياة ويعزون أنفسهم به عما حل بهم.

غربت الشمس فأستأذن الأطفال وغادروا.

شيعتهم بنظراتي دون أن أتفوه بكلمه.

يا لكم من كادحين تأتيكم اللقمة زائرة على استحياء بعد عدت أيام من أمعاء خاوية

ويأتي الجوع فاجرا صارخا كل يوم.

كلما حاولت أن أضع نفسي مكانهم كي يتسنى لي التعبير أجد نفسي أجبن من أن أقدم على التخيل

حتى واعلم أنني إن حاولت وصف معاناتهم فاني احمل اللغة فوق ما تستطيع

فكيف لحروف أن تصف جروح غائرة وكيف لورقة وحبر أن يحتضنوا سنوات من الضياع والحاجة.

وكيف لقصة مقاتلين أنجبتهم الحاجة من رحم المعاناة أن تكون حبرا على ورق؟

أسـفي عليك

اسفي عليك يا ولدي

تلحفت التراب فراشا تريح عليه ما أرهق كاهلك

أبا وأما يا صغيري قبل الثامنة أصبحت، تحتضن أخاك بحنان امتزج فيه التعب

فأصبح لوحة صارخة من الأسى، تشده إليك بضعف عل حرارة جسدك تدفئه.

يبادلك الاحتضان متيقناً أن لا أمان له غيرك وإنك لن تضيعه.

تحتوي أخاك وأنت الأشد حاجة للاحتواء، قلبك يتفطر شوقا ليد حانية تطبطب عليك.

تضمه إليك برفق لتسلمه الى النوم عله يغيبه قليلا عن هذه العيشة المزرية.

قالوا قديما " فاقد الشيء لا يعطيه " فمالي أراك تعطي وأنت المحروم

بل تعطي وببذخ والله يا بني قد كذبوا وصدقت أنت.

تناما محتضنان بعضكما وقد احتل التعب ملامح وجهكما وشيد الإرهاق مستوطنته على حدود تقاسيمهما.

الجوع قد نال منكما ما نال، والعطش يغني أغنية منفردة.

الفقر هو الجاني عليكما هو ذلك المجرم الذي أتمنى أن انفضه عنكما

كما ينفض أعرابي غبار السفر عن طرف ثوبه بعد أن يأوي الى خيمته

أتمنى لو كنت أستطيع ذبح هذا المتشدق، ولكن لا سبيل لي سوى الكتابة

لا امقت شيء كمثله وأنني بكل مره اكتب فيها عنه أحاول قتله والمشي وراء جنازته

شامتاً وتشيعه الى مثواه الأخير

أن انصب خيمة عزائه لا لأتقبل العزاء به فهو اقل وأحقر شئناً

ولكن لابد من خيمة عزاء لإتمام مراسيم موته.

أحاول حفر قبره سطرا سطرا,

وأهيل عليه الحروف هكذا أنا إن أردت التخلص من شيء كتبت عنه.

ما ذنبكما واي جرم ذاك الذي اقترفه طفلان ليستحقا هذا التشرد.

رضيع أرضعته الحياة مر ألوانها بدلا من الحليب.

أما آن لكما أن تستريحا من وعثائه؟ أما آن لكما التحرر من براثينه؟

استطردني الآن وانا انظر إليكما قول سيدنا علي " لو كان الفقر رجلا لقتلته بسيفي هذا "

أدركت حجم غصته والحزن الذي كان ينتابه حينها.

أسفي على لين عظامكما وهشاشة جلودكما التي لم يرحمهما البرد ولا الحجارة

اسفي على حالكما اللذان لم تشفق عليهما الحياة بعيشة كريمة كسائر أقرانكم

وخالص عزائي لطفولتكما التي أجهضت قبل أن تولد.

ما بين الفقروالحرمان تكمن معاناة الأطفال

لا تبكي يا صغيري وتجعل هذه العينين الجميلتين تذرف الدمع.

اعلم مواجعك ومآسيك واعلم أنك تتألم

ينهش الجوع أعضاء جسدك بمتعة كأنه ثائر ينتقم لمقتل والده

يضاعف النخر في عظامك الصغيرة ليزداد جسدك ضعفا.

اعرف أنك تعاني من الشتاء، بل تكرهه، لما لا فمثلك لا مأوى له ليستره من المطر

ولا مدفئة تحميه من ليالي البرد الظالمة.

اعرف تماما أنك تتخذ الطرقات مسكنٌ لك وتلتحف الكراتين غطاء لجسدك المرتعش الهزيل

لطالما كانت القمامات سبيلك للعيش تقتات على ما تجده فيها من بقايا الطعام

وأحيانا تجد فيها ما يستر جسدك.

فأنت حتى لا تمتلك سترة صوفية.

اعلم أنك ترتدي تلك السترة الممزقة منذ أشهر وما أن يرمي أحدهم بقطعة ملابس

هرولت إليها ممسكا بها تأخذها وقلبك يقطر فرحا

اعلم يا حبيبي أنك تخاف الليل لما يحمله من ظلام، أصوات كلاب مسعورة

وسيارات مسرعة تقذف في وجهك الوحل ليبللك ويزيد بردك، فهذه حال كل المتشردين أمثالك.

اعلم يا صغيري أنك ترند كل مجلة وكل خبر عاجل وكذلك خبر اليوم

قد أصبحت بطل كما يزعمون.

كان هؤلاء يتباهون بنقل خبرك وما تزيدهم معاناتك إلا فرحا

لينتجوا سيناريو اقوى "متشرد جائع عاطش وبردان "

يا لسعادتهم!

بهذا يضمنون متابعة أكبر تماما كما قال المثل العامي" مصائب قومً عند قوم فوائد"

يتشدقون تحت شعار الإنسانية.

تبا لهم ولإنسانيتهم الهوجاء تلك.

هل منهم من مد يده إليك لينتشلك من ذلك المكان المظلم وأخذك الئ حيث المكان الأنسب لك.

هل من يد امتدت إليك لتجود عليك بقطع غير مهتراه تستر بها جسدك؟

هل من محسن ناولك لقمة نظيفة لقمة لتشبع جوعك وترحم مناعتك المعدومة من اكل ما يرمى بالقاذورات؟

هل من فاعل خير أحسن إليك ليحسن الله إليه فينتشلك من هذه الحياة التعيسة.

دعني أكون صريحه معك يا صغيري، لا أحد يكترث إليك أو يهمه آمرك، لا تغرك شعاراتهم الواهية

ولا كثرة المساعدات التي يدعون أنها موجهة لدعمكم.

يقولون بأن وجهتكم الدراسة وليس العمل.

أنظر معي يا صغيري أين أنت وأين ألاف الأطفال أمثالك أرهقتكم عمولة الأطفال

أرى الآن عينيك تتساءل ماهي المدارس؟

أسفي عليك يا صغيري

والويل لهم.

أين ادعاءاتهم وأين ما يزعمون؟

لما لا يستبدلون ما يصرفونه على صناديق الانتخابات التي لا تسمن ولا تغني من جوع

بصناديق تبرعات لهؤلاء الجياع

والله يا صغيري ما رأيتكم إلا أكثر شعبة في الأرض تظلمون ويمتحص حقكم.

اليوم تجد البعض منهم يذهب الئ محل الحيوانات ويشتري حيوانا ويسكنه بأفضل بقعه في منزله

مدعيا الرحمة والرفق بالحيوان، أما كنت أولى بالرحمة يا صغيري؟

تراه يبني ويهدي منزله مرتين بالسنة بحجة تغير الديكور وتجديد العفش

وأنت يا صغيري تتمنى سقف يقيك من عواصف الليل القارسة.

لا تنصدم يا ولدي بأفعال الكبار فطفولتكم هي الأكثر نقاء وصفاء

أما عالم الكبار فهو مقبرة للمشاعر.

عطش الصغيرة

تحت أشعة الشمس وبين صفوف السيارات

جسد هزيل ووجه تملؤه البراءة والضعف على حد سواء

خدود ملتهبة لفحتها أشعة الشمس الحارقة فزادتاهما احمرار وجديلتين بلون البن.

تنادي وكأنها تستغيث " من منكم يريد الماء ليروي عطشة "

تخطو هنا وهناك حاملة بضع قوارير من الماء لعل من يستجيب نداها.

أُتفتح نافذة سيارة معلنة فك الحصار عن هذه الصغيرة لتبتسم ملئ شدقيها وتهرع بخطأ متلهفة.

تسابق الزمن بخطواتها تسرع وتتعثر..

كلما تعثرت تنهض وتركض أكثر.

لا تود إضاعة فرصتها في العيش قبل البيع كان هذا اعتقاد صغيرتي.

كيف لا وهي التي تقف طوال النهار حتى تتشقق قدماها

تتأمل الماء بشراسة تمنع نفسها عنه

وهي الأحوج له لسان حالها يقول "إن شربته لن يكون هناك خبز اليوم لإخوتك".

لتصل أخيرا الئ هدفها التي لطالما اعتبرته منقذ يومها لاهثة بعيون مستنجدة لترفع قارورة الماء

محاولة استرجاع أنفاسها قائلة بصوت متقطع " مائ ئ ئة ري..ال س. سيدي".

كانت الحياة أصعب بكثير من قدرت هذه الطفلة.

لا تعلم أتلوم الفقر الذي يلازمها كظلها

أم تلوم الحظ الذي لم يضحك لها يوما.

كان الليل بالنسبة لها فارسها الهمام على عكس غيرها من الأطفال.

تلقي فيه جسدها المتعب وتغنم بقليل من الراحة والكثير من أحلام

ما قبل النوم الوردية "حلويات ومدرسة كعك وثياب نظيفة عائلة وحضن ويد حانية"

كان هذا جزء صغيرتنا اللطيف التي تمتلكه من الحياة

كانت طفلتنا ابسط من خبث هذا العالم،

الين من قساوته

وكان ذنبها أنها جميلة ورقيقة.

ما أجمل الفقراء وما أقبح الفقر

على رصيف إحدى الطرقات تجلس فتاة في يدها قطعة من الرغيف تلتهمه عله يسد جوعها.

ليقترب منها شاب يحمل كاميرا ليوثق هذه اللحظة الفريدة بالنسبة إليه.

نعم فمعاناتها غنيمة بالنسبة لمصور سواء كان من أولئك الذين يرجون الإحسان من أهل الخير

أو من أولئك الشياطين الذين سيطرة عليهم غريزة حب المال والشهرة على حساب أوجاع الأخرين

لا تزيدهم معاناة ضحاياهم سوى تعطشا ونهما وما أكثرهم الآن!

مد إليها يده لتوثيق مشهد درامي من الإحسان والإنسانية

فظنت انه بحاجه للطعام فاذا بها تمد يدها لكي تعطيه ما بيدها من رغيف.

أي روح تلك التي لديك

أي قلب ذاك الذي تمتلكيه ومن علمك الإيثار يا صغيرتي.

رغم جوعك وحاجتك الملمه لكسرة الخبز تلك إلا أنك تؤثرين بها من حولك.

ألأنك تعرفين كيف هو شعور الجوع أم إحساسك بالحرمان.

أقف هنا احتراما للفقر الذي أدب نفسك يا صغيرتي وجعلك تحسين بالأخرين

ولكنني لا اناصره فقد كان سبب تعب عينيك وبهتان بريقهما لقد أرهقك بحثا عن لقمة

تسدي بها حاجتك وجوعك

يا صغيرتي هذا البائس ليس جائعا

بل ممتلئ حد التخمة.

ممتلئ بالتبلد والجشع، ممتلئٌ بالبرود واللا إنسانية.

اقترب منك لينقل ضعفك وحاجتك لتتبادلها الصحف والمجلات ليس رحمة بك يا صغيرتي

بل سفور وطمع فخبرك سيدر عليه أموالا طائلة

هم تجار يا حبيبتي تجار يتسترون تحت عباية الإنسانية.

لم يقترب ليخفف عنك أما كان أجدر به أن يناولك قارورة ماء لتبتلعي تلك اللقمة اليابسة؟

لتعلو صغيرتنا بصوتها الموجع المليء بالأسى كفوا عن تصويرنا لسنا بضاعة لديكم.

لا تستهينوا بأوجاعنا ولا تعبثوا بجروح قلوبنا.

أرجوكم لا تُريقوا ماء وجوهنا على صفحاتكم لا ترفعوا نسب مشاهداتكم على حساب كرامتنا.

نعم نحن لدينا كرامات مثلكم تماما.

نحن فقط لا حول لنا ولا قوة.

لا تظهروا للعالم عجزنا.

ليست الخصوصية حكرا لديكم اتركونا وشأننا لا تقتاتوا على مواجعنا.

أخبروني أولا ماذا تعلمون عن مرارة أن تكون أكبر انتصاراتك لقمة تخرس بها أمعاء بطنك الجائعة.

ماذا تعرفون عن الشتاء القارس!

هل جربتم تلك الرعشة التي تنخر الأجساد الهزيلة بسبب البرد.

أن تلتقط بعض الطعام المرمي به في الشارع لأنك بأمس الحاجة إليه لتضمن العيش.

نحمل أوجاع فوق طاقتنا وأكبر من عمرنا

بعد هذا يلتقط المصور صورة لها متجاهلا تحطم قلبها الصغير يدوس على ما تبقى من كرامتها

ويكتب تحتها ما أجمل الفقراء وما أقبح الفقر.

بل ما أجمل الفقراء وما أبشع الفقر وأقبحك.

عمالة الأطفال

الأسواق مكتظة بالأطفال

ليس لاقتناء الألعاب أو ابتياع قطع الحلوى

لا يا سيدي انهم يعملون.

أصبحت المدارس مهجورة وامتلأت الأسواق بهم.

يسحب من يده عنوه كل صباح لا الئ تناول الإفطار والذهاب الى المدرسة

بل الئ تلك البقعة التي تستبيح طفولته وتجبره على ملازمتها إلى الرمق الأخير.

فيحمل حقيبة على ظهره

لا تحتوي على الكتب وإنما معاول ومطارق وغيرها من أدوات العمل

تزن ثلثا حجمه يمشي مترنحاً لثقلها فيجبره التعب على الاستراحة قبل البدأ.

فتارة يجرها خلفه في الأرض وتارة يدحرجها أمامه.

في طريقة الى تلك البقعة الكئيبة يمر بجانب المدرسة

يسمع صوت المدرس يلقن طلابه الدرس.

يشده الصوت فيصعد على حقيبته عله يطال النافذة

فيختلس النظر على استحياء.

يشاهد بمتعة، يصغي بمرح

يسأل الأستاذ الطلاب " ٤×٤ كم يساوي " فلا يجيب أحد

فتدفعه رغبته صارخا بالإجابة مستبشرا ضاحكا " ١٦ سيدي "

ليقطع فرحته تلك صراخ الأستاذ عليه قائلا " ماذا تفعل عندك أيها المتشرد؟

" أغرب عن وجهي ".

شعر بالخوف كثيرا فيقع داميا جبينه

خانته جفونه من شدت الألم فدحرجت دموع كانت حبيسه فاختلطت بالدم المندفع

رفع كفه الصغيرة ليمسحهما معا ويكمل خطاه بتعثر

وصل أخيرا ليباشره رب عمله بصفعه أسقطته أرضا "اين كنت أيها المغفل

أنا لا ادفع لك لكي تتمشى بالشوارع وتأتيني متأخرا.

حاول التماسك والنهوض وأجاب قائلا " اسف سيد.. د..يي " لم ينه جملته حتى شعر بالدوار

وخذلته قوته فارتمى على الأرض فاقد للوعي مغيب عن الواقع الأليم تحت أنظار المارة

الى أي مرحلة وصلت الإنسانية إليها

أن يتركوك يا صغيري تتوجع ألما وتتحمل ما ليس لك به حول ولاقوه.

نعلم أن الإنسانية أصبحت شي لا وجود لها عند البعض

وما هي إلا كلمة ينتقمون بها ويخفون ورائها شيطانيهم.

حرموك التعليم وأجبروك على عمل لا يطيقه الكبار.

ألاف الأطفال أمثالك يستغلون ويضربون ويعذبون من يسمونه " رئيس عمل"

أنهار التعليم في بلادنا ودنست قدسيته بسبب عمالة الأطفال

أكثر المراهقين والشباب لا يستطيعون القراءة والكتابة لأنه لم يتسن لهم أن يتلقوا تعليمهم الأساسي حتى

لأنهم أجبروا على خوض معركة غير عادله لكسب قوت يومهم في صغرهم.

يتحسرون كلما رأوا الكثير من أقرانهم مهندسين، أطباء ورائدي أعمال

بينما هم يصعب عليهم حتى قراءة لوحة جدارية.

يصاب المجتمع بالتخلف وتنهار البيوت لان أعمدتها هشة وغير قوية

إن أردنا بناء مجتمع متقدم، مزدهر وبارز علينا البدء ببناء أساس قوي وصلب وهؤلاء الأطفال هم أساسه.

اليوم هم أطفال

وغدا رجال المستقبل وحماة الأمة.

طفل حرب

دائما ما تطول قصص الحديث عن الطفولة عن عمر لا ينسى وسنوات لا تمحى تفاصيلها من الذاكرة

تمر بك الأيام فتحن وتشتاق الى تلك اللحظات الدافئة منها وحتى تلك القاسية التي كانت السبب في نضجنا

تمر بي لحظات احن لأزقة الشوارع لألعابي وخصوصا دراجتي الهوائية

لساحة مدرستي التي كنت اركض فيها

لحنان امي كلما تعثرت بالجري أقامتني وربتت على كتفي برفق

كلما تذكرت امتلأت عيناي بالدموع اشتياقا لذلك الماضي

ولكن مع ذلك الحنين

شيئا ما داخلي يصرخ ألماً

جرح غائر ودامي ينزف منذ سنين اتعب روحي وجعلها ناقصة لا تعوضها مسرات الدنيا

هذه ليست قصتي وإنما قصة كل شخص عاش ما عشته وذاق مرارة الحرب

تلك الحرب التي لا تعرف جنديا من اعزل.

لا تفرق بين الشر والخير.

كم هي عادلة تلك الحرب توزع المآسي بالتساوي

وبغض النظر عن حالتك سواء كنت شيخ، امرأة أو طفل لكلا حصته لا ينقصه شيء.

كانت أمي شديدة الحرص عليّ لا تسمح لي بالخروج أبدا ودائما تبرر رفضها

بخوفها من الأوضاع المزرية في الخارج

ذات يوم ومع إلحاحي الشديد عليها وتأكيدي لها أن الأجواء هادئة وخالية من أصوات القذائف والصواريخ سمحت لي أمي بالخروج كرها وطلبت مني إلا ابتعد كثيرا.

كنت أنط فرحا لم استمع حتى لبقية تحذيراتها.

ركضت مسرعا نحو أصدقائي أناديهم بالخروج، اجتمعنا نحن صبية الحي جميعا لنلعب الغميضة.

جاء دوري لأغمض عيناي

ابتعدت عنهم واستدرت قليلا لأغمض عيناي وأبدأ بالعد

وماهي إلا دقائق حتى سمعت دوي عنيف وصراخ يملئ المكان

وقعت على الأرض لا أدري لما.

شعرت بوخز عند ركبتي، سمعت أمي تنادي باسمي

ولكن لم أكن أرى شيئا كل شيء باللون الأسود

يا إلهي متى حل الليل لا إنها كالغيمة السوداء

حاولت الوقوف والصراخ لم أستطع

زاد الألم في ساقي حاولت أن أتحسسها لأرى ما بها لم أجدها،

لا..

ماذا حدث؟

بدأت تلك الغيمة السوداء بالتلاشي واتضحت الرؤية

رأيت أمي تجري تجاهي وتحتضنني بقوة

دماء تملأ الأرجاء وقطع متناثرة في كل مكان عرفت بعدها أنها أشلاء.

نظرت الي أمي بتوجس، سألتها ببراءة ماذا حدث؟

أين أصدقائي؟

أين ساقي؟

ماذا حدث كنا نلعب الغميضة أخبريهم أن يأتوا لم اعد أرغب باللعب

تحشرج صوتي وبدأت بالصراخ والعويل، ساقي تؤلمني.

لم أرى سوى دموعها تتناثر بغزارة

الحمد لله يا ولدي لقد نجوت وأصدقائك أهدوك حياتهم هيا الى المستشفى.

مهلا أريد ساقي، أريد أصدقائي، أين هم؟

قولي لهم أني لم اعد أريد اللعب، فليظهروا.

احتضنتني بضعف وسارت بي في تلك الساحة

كنت أحاول التمييز بين تلك القطع، وجدت سيقان عده حاولت التعرف على ساقي بينها

ولكن دون جدوى، أمعنت النظر في تلك الجماجم المتطايرة لعلي أميز ملامح أصدقائي

ولكن كلها رؤوس متفحمة.

أتذكر تلك المجزرة التي حولت طفولتي الى قصة تملؤها الشفقة فأصرخ متألما

أتساءل في كل مرة امر فيها بساحة اللعب وأنظر الى ساقي المبتورة ما كان ذنب أصدقائي ليموتوا هكذا؟

ما كان ذنبي لأعيش ملازما لهذا العكاز؟

ما كان ذنبي لأحمل ذكرى بشعة ستذبحني ببطيء؟

ما هو طموحك في المستقبل؟

كان يأخذ حقيبته كل صباح ويخرج مسرعا ليلحق بباص المدرسة

يذهب مع أصدقائه سويا والفرح بادي على وجوههم

وأصوت ضحكاتهم البريئة تصدح

وعند وصولهم الئ المدرسة تراهم يتسابقون للالتحاق بطابور المدرسة

والاستماع الئ الإذاعة الصباحية التي لطالما كانت تسبقها تمارين رياضية يلقي

توجيهاتها عليهم أستاذهم لتجدد نشاطهم ويليها آيات من الذكر الحكيم

لتنتهي الإذاعة ويتوجهون الئ صفوفهم بانتظام يتلقون حصصهم الدراسية

وينهلون من العلم قليلا. لتأتي تلك الدقائق القليلة معلنه استراحة هؤلاء المجاهدين

في سبيل العلم يندفعون خارجين من صفوفهم للأكل واللعب فهذه هي استراحة محارب.

لينتهي بهم اليوم بعد ذلك متوجهون الئ بيوتهم.

كل هذا كان شريط يمر بمخيلة هذا الطفل الذي يقف أمام تلك السبورة التي لطالما كانت منهل العلم.

لطالما كانت كالصرح المقدس الذي ينقش عليه العلم بالذهب.

ذلك الفصل الذي احتضننا وكان منزلنا الأخر لنتلقى العلم داخله تاراتً وتارات أخرى

لا تخلو من الشجارات العفوية بيننا.

كان كالحضن الكبير والدافئ الذي لطالما ضم أبناءه داخله وهم يتزودون بالمعرفة.

استيقظت من تلك الذكريات الوردية وانا أقف أمام كل هذا الدمار الذي حل بمدرستنا

الى بقايا الصواريخ الملقاة على الأرض الذي حولت هذه الصرح المقدس الى ركام

وحالت بيننا وبين إكمال تعليمنا.

أقف أمام فصلنا الذي لم يتبق منه سوى حجارة قد تفتتت وأصبحت كالتراب تذره الرياح

وقطع من الحديد الملتوي الذي عرفت تاليا إنها النافذة التي كانت تطل علينا الشمس منها لتنير الفصل بأشعتها

البراقة ساطعه علئ تلك الأوراق البيضاء وتزيدنا طاقة ونشاط.

لم تعد تلك الأشعة كما كانت حتى وكأن الشمس غير الشمس

بل أصبحت أشعة مخلوطة بذرات الغبار الكثيفة والمتطايرة التي ما إن تنظر إليها أصاب عينيك الألم

وصعبت عليك الرؤية والتنفس.

وانا واقف على الأطلال أتحسر على ما أصابنا شد انتباهي تلك السبورة التي لازالت شامخة

لم يصيبها ما لحق بباقي قطع الأثاث وأجزاء الفصل

حتى أنها احتفظت بالعبارة التي دونها عليها الأستاذ أخر مره

قبل القصف في درس التعبير " ما هو طموحك في المستقبل "

لم يتسن لنا يا معلمي حتى من إكمال كتابة طموحاتنا في المستقبل

فبينما أنا قابع في التفكير بأحلامي الكثيرة كيف أرتبها

من أين ابدأ إلا وسمعت دوي طائرات العدوان تحلق فوق قريتنا عاقدة العزم على إبادتنا.

جاء الظالم ليخبرنا انه ليس هناك مستقبل لنا

ودفن أحلامنا تحت التراب..

يا أستاذي..

هنا تمام تحت هذه الركام.

لم تعد هناك مدرسة تحتضن طموحاتنا جميعنا أوقفنا أقلامنا عن كتابة أحلامنا المستقبلية

واستبدلناها بأحلام ابسط

خذني على سبيل المثال لم اعد احلم أن أصبح رائد فضاء

ولا حتى زميلي الذي كان الأول في الصف يريد أن يصبح طيارا

أصبحنا نريد أن نعيش وحسب أن نأمن من أصوات الصواريخ والطلقات الطائشة

أن ننام مرتاحي البال دون الخوف من أن نشوى أو نموت اختناقا تحت الإنقاض

نحلم فقط أن نستلقي دون فزع

أن نسلم أنفسنا للنوم ولو ليلة كاملة واحده دون أن تراودنا كوابيس الإبادة المفجعة.

بينما أنا غارق في التفكير سقطت عيني على كتاب كان بين الخراب وقد غطاه التراب

انتشله وقد تمزقت بعض أوراقه لاحتضنه الئ صدري وكأنه كل متبقى لي من العلم

لأخطو أخر خطواتي مودعا هذا المكان الذي لطالما كان ملتق الأحباب ومسقط العلم.

أودع المكان الذي لطالما استقينا منه العلم بعد أن هدموه ولم يتبق فيه جزء من الحياة.

لقد كانوا خبراء جدا فقد كانوا يعلمون من أين تؤكل الكتف

وان بهدمهم صرح تعليمي يغتالون فيها شعب بأكمله فمجتمع من الجهلاء

هو لقمة سائغة لكل طامع ومعتدي.

يحولون غزونا بالجهل وتركنا نتخبط بين الظلام.

شلت أيديهم بما فعلوه بدافع غريزة الطمع والجشع ظلام يريدون لنا أن نقبع جهال تحت رحمتهم.

توجهت خارجا بعد ما بكيت على الأطلال قليلا، ارتاحت عيناي واشتعل قلبي ألما.

صديق الدمئ

يا صغيري أصابتك الوحدة وأصبحت صديق الدمئ

فأين الأصحاب والأطفال من عمرك.

لماذا تحتضن هذه الدمية وتلاعبها

أين أطفال حارتك؟

أين البنين والبنات من عمرك؟

تقطن الشارع تلعب وحدك ماسك بعض الألعاب.

بل أين الناس، أين أهل الحارة هذه.

السكوت مخيم وقاتل هنا.

لا حيوانات حتى لا شيء سوى أصوات الغربان تحوم في السماء.

ما لذي أصاب هذا الحي، وجعله بهذا السكون المخيف.

حتى أني لمحت المارة على قارعة الطريق يسرعون الخطى مبتعدين

ويقشعرون خوفا بمجرد مرورهم هنا.

وأنت يا صغيري جالس وحدك لا أنيس معك سوى هذه الألعاب البالية.

إلا تشعر بالخوف؟

اعذرني فقد أصابني الهلع بمجرد دخولي حيكم.

ما هذا الخراب ولما كل شيء في هذه البلدة مهدم؟

ما لذي حل بها؟

أخبرني يا صغيري من فعل هذه الفعلة الشنيعة بكم؟

ماهي إلا لحظات حتى رأيته جاثيا يبكي أمامي

لاندفع نحوه محتضنا وجهه المتسخ بالغبار براحة يدي

واستطرد قائلا: ما بك يا صغيري ما لذي جرا.

أصابني الذهول من بكائه الشديد والمفاجئ رغم انه كان يلعب بوجه بشوش مع دميته فوق هذه الركام

قبل لحظات فقط.

أكان حديثي معه قاسي عندما سألته لما هو وحيد؟

أم انه لم يعتد أن يرئ أشخاص غرباء؟

يا ترى هل أيقظت داخله ذكرى دفينه مؤلمة؟

أخذتني الأفكار بعيدا لأحلل سبب بكاءه

ولكن أفاقني من حيرتي عندما سمعته يقول لقد اشتقت لأصدقائي اشتقت لخالد، سارة، احمد وأمين.

كنا نلعب هنا كل يوم، كانت هذه البقعة هي المكان الذي اعتدنا أن نجتمع فيها كل عصر

بعد الانتهاء من كتابة واجباتنا المدرسية.

ولكن في ذلك اليوم ونحن نلعب سمعنا صوت عالي جدا

حتى أن أُذناي المتني من وقعه وهواء ساخن قذفني بعيدا عن أصدقائي ليغم علي حينها.

وبعد تلك اللحظة فقدنا احمد وأمين وسارة.

ما لذي حل بهم يا صغيري ما لذي تقصد بفقدانهم؟

أجاب باكيا وصوته محشرج من البكاء لقد كانت قنبلة وقتلتهم لأنهم كانوا قريبين منها.

لقد تمزقت أجسادهم ولم يستطيع أهالي الحي التميز أي قطعة تنتمي لأي منهم.

لقد سمعت بأنهم أخذوهم أشلاء ودفنوهم مع بعض

حتى انهم لم يتركوني انظر إليهم نظرة أخيرة لكي أودع أصدقائي الوداع الأخير.

كنت أريد أن أقول لهم أنني أحبهم جدا ولن أنساهم وسنجتمع بالجنة إن شاء الله.

ولكن كان مغمي عليا.

أصابت عيناي الدموع لم اعد اقوى التحمل أكثر احتضنته لأجهش بالبكاء

حتى إنني لم أستطع التحمل أمامه، فازداد بكاءه.

ما اشد وجع الحرمان.

والله انه لأوجع شي بالحياة أن تفقد عزيز عليك.

استمر قائلا حتى خالد رحل.

فسألته قائلا أمات هو أيضا؟

فأجابني بصوت متقطع خالد قطعت قدمه وهو الآن خارج البلاد ليتلقى العلاج.

ولما أنت هنا وحيد وبعيد عن بيتكم.

قال هذا المكان الذي كان يجمعني بأصدقائي آتي إليه كل يوم خلسة لأسترق منه بعض الذكريات.

أتتخيلون حجم المعاناة التي أصابت هاذان الطفلان.

الأول يعاني فقد أحد أعضاءه وهذا ما سيجعله يبكي الدهر لعجزه.

والأخر يبكي الفراق وأتعبته الوحدة. أسفي عليهم وعلى طفولتهم المدمية.

الموت بسلام

يقتلون طفولتنا تدريجيا بزعمهم انهم يحمون مستقبلنا

أي مستقبل هذا وهم يهدمون حاضرنا ويدمرون كل ما يمد للحياة بصلة.

لا نرى إلا أصوات القذائف والصواريخ من فوقنا، تتخلل الرصاصات الطائشة جدران البيوت

يتحطم زجاج النوافذ من أثرها، وقوة اهتزازات ضرب العدو.

لنخرج مسرعين من غرفنا التي لم تعد مأمن لنا وحماية حتى من المطر

نتيجة التشققات التي تسببت بها بنادقهم

لنتجمع وسط بقعه في البيت نمسك بعضنا ونبدأ سكب الدموع وتلاوة الدعاء

ألا يصيبنا مكروه أو أذى أو على الأقل أن ندفن قطعة واحده لا أن نتطاير أشلاء

مع أن أمي قالت: أن وجع الموت واحد وان لو مُزقنا فسيكون الأمر أسرع

ولكن ما نخافه بهذا الشكل من الموت أن لا يؤوينا حتى قبر نهاية المطاف ولا يكون لنا شاهد نعرف به

فيعود الصوت مرة أخرى وترجع معه لحظة انتظار المنية

أتتخيلون كمية الخوف الذي يصيب أفئدتنا الصغيرة ونحن نغمض أعيننا ونضع أيدينا الصغيرة على أذاننا

كي لا نسمع هذا الصوت الموجع الذي وكأنه يقول لنا ها أنا قادم لكم.

نخاف من ألا ينتهي هذا الشي، من ألا نعيش الحياة التي يحق لنا أن نعيشها.

نخاف من ألا نرى بعضنا بعض ثانية

أخاف إلا انظر لأوجه إخوتي وان لا تتيح لي الفرصة أن نلعب سويا خارج البيت مع أصدقائنا مرة أخرى..

كل هذا ونحن نتخيل انه ليس هناك مخرج من هذا الوضع وأننا لن نعيش كما نحلم.

كم أطفال قد قتلوا، وكم منهم أصبحوا مقعدين بسبب رصاصة أو وطأة صاروخ أو قذيفة متبرئة من قاذفها ومن لم يفجره لغم قتله مسخ الجوع.

هكذا أصبحنا نقتل ولا نعلم ما ذنبنا؟!

الحياة أصبحت كغابة تعيشها حيوانات والحكم للأقوى.

يأكل القوي الضعيف، ولكن هذا قانون الحيوانات ومصدر رزقهم كما كتبه الله.

ولكن نحن ما عذر من يقتل النفس وينشر الخوف في أرجاء الأرض.

يتلذذون بصراخنا، وينتشون بسماع بكاء وحرقة قلب الأمهات والثكالى على أزواجهن وفلذات أكبادهن عندما يقتلون أمام أعينهن بدون أدنى جرم.

أصبحت طفولتنا ككابوس..

نتمنى الخلاص منه أصبحنا نتمنى الموت بسلام.

وبعد كل هذا ...

لازال أطفالنا يعانون يوما بعد يوما.

لم تنصفهم الحياة بعد.

لم يجدوا اليد الحقيقية التي تأخذ بهم نحو عالم ومستقبل أفضل.

كان الله في عونكم يا صغاري.

كنتم ولازلتم قضية هذا العالم وأنسه

فلذات أكبادنا وبضعٌ من قلوبنا، أملنا وأمل هذه الأمه.

فعسى الأيام أن تنصفكم بعيشة كأقرانكم في الجانب المشرق من الأرض

عسى أن تترأف بكم الدنيا وعسى دموعكم هذه التي تتساقط حزنا وقهرا

أن يبدلها الله فرحا وضحكات تملأ وجوهكم البريئة.

آملين من الله أن يحقق رغد العيش لكم ويبدل خوفكم أمنا

وطبتم حيثما ثقفتم.